مع اللهب

بقلم الدكتور شكري فيصل

عدت ، الساعة ، من هذه الجولة في أطراف الغابة .. بودي أن احتفظ بكل الذي تملكني من مشاعر وعاش في ذهني من أفكار إلى ساعة أخرى..إني ، وقد أحسست لذع البرد العنيف ، جديرٍ بي أن أعيش لحظات مع هذه النار المتقدة في هذه الغرفة المعتمة .

كنت وحدي مع اللهب .. كان كل هؤلاء الذين يعايشونني في هذه الأيام من عيد الميلاد قد توزعتهم غرفهم والغرف الأخرى .. كان بينهم الذي استهواه الاسترخاء فذهب إلى سريره يتمطى ، وبينهم الذي ازدهاه الغناء .. وكان فيهم من استبد به ورق اللعب ، وجماعة هنا وهناك ، من هذا اللون أو ذاك ، في حديث سياسي بدأ منذ جئنا هذه الغابة الحلوة .. ولما ينته بعد .

* * *

وهل أحلى من موقد النار في الشتاء الذي يجلله الثلج .. يجلل كل ناحية فيه من ذروة الجبل إلى قرار الوادي .. هل أحلى من أن تحتطب في براءة الانسان القديم مع الذين يحتطبون .. أو تحمل الأعواد والاخشاب من مقرها في اسفل البرج ثم تصعد بها إلى هذه الغرفة الحجرية المعتمة .. التي تذكرك حياة الناس حين كان الناس لا يعرفون خطوط التدفئة المركزية تنساب في الجدران ، وتتركز في الزوايا ، ولا يعرفون مواقد الخزف ولا مدافيء الكهرباء .. حين كانت الجدران أحجاراً ضخمة لا تكاد تجد فيها النافذة الا أن تتلمسها تلمساً ، ولا تلقى الطريق إلا أن تضيء من هنا وهنا الشموع !..

هل أحلى من أن تنفض عن الاعشاب المتجمعة الثلج المتجمد ، ثم تحملها إلى هذا الموقد ، وتأخذ مكانك على هذا الكرسي ذي الأطراف الجلدية .. ثم تستلقي تفكر حيناً وتئد التفكير في النار حيناً .. تلتقط الهاجسة وتكبت الهاجسة .. تنادي الشوق وتحبس الطريق على الشوق .. ويلذعك الحنين يستحوذ عليك ، وتفر من الحنين تحاول أن تتجنبه .. وتعيش نهباً مقسماً بين نوبة الفكر وهدأة الفكر .. بين الحس المستوفز والحس المتلبد لا تدري أين أنت ! !

* * *

وكذلك جلست هذه الساعة إلى اللهب المشتعل .. انصرفت عن كل شيء أو حاولت..واجتهدت أن أخفت كل شيء حتى لا يبقى في سمعي إلا صوت النار . نسيت الوادي الذي ينساب ،وراء هذه الاحجار الضخمة،خطاً في الأرض ، وخطاً في الافق .. عن يمين ويسار ، وبينهما هذه القرية الصغيرة .. نسيت هذه الهضاب التي تحد هذا الوادي ، تتباعد فتوسع له،وتتقارب فتجعل من تقاربها نهاية له أو بداية .. ولكنها أبداً تظله بهذه الغابات الخضرة النضرة .. أنسيت النهر الوادع الذي يواكب الوادي ، وظلال البيوت المرتسمة على بركة لماء وسط القرية .. وأخفيت عن عيني بياض الثلج الذي كان هبة الأرض إلى السماء في عيد الميلاد ، وأخذت أحدق في النار ..

* * *

ومن ذا الذي لم يستمع إلى حديث النار في شتاء بارد ؟.. من الذي لم يشهد آية البعث هذه .. النار الحمراء من الشجر الأخضر .. أتراهم استمعوا إلى هذا الحديث اولئك الذين يمسكون بأيديهم هذه الأحطاب والأخشاب فيلقون بها إلى الموقد ؟!

كان صاحبي الذي معي لا يفارقني رفيقاً بنفسه ، رفيقاً بابنة الغابة ، هذه التي تساق إلى النار على غير جرم .. كان معها منذ ساعة يشهد شجرها المنتصب كالشباب ، المخضر كالأمل ، الذي يفتح أذرعه كلها من يمين ويسار حين يبسطها إلى السماء كالمؤمن..ولذلك لم يدر أكانت تلك يده التي أمسك فيها بالحطبة الضخمة أم تلك يد الانسان الذي يعيش في روحه الملتهبة .. ولكن الذي كان أنه أسند الحطبة إلى اخوتها في الموقد ، في شيء من البعد .. أترى كان هذا البعد رفقاً بها وخوفاً عليها من النار..أم كان اغراء للنار بها وإحكاماً لتسلطها عليها ؟

* * *

وامتد اللهب يرقص للوقود الجديد .. ويا من يرى رقصة اللهب الجائع لابنة الغابة .. كانت رقصة الاغراء .. والتطاول .. والخجل .. كانت رقصة التسلط والتذلل .. كانت هجمة مرة ورجعة مرة .. كرة وفرة .. كانت لمسة ناعمة كلمسة اليد لليد ، أول العهد باللقاء .. حين تكون الروح قريبة من عالمها العلوي الذي جاءت منه .. وكانت قبلة مختلسة كهذه التي نختلسها أيام الخطبة الأولى ، في حذر من أنفسنا حيناً، وفي حذر ممن حولنا حيناً .. وكانت استدارة سريعة كما تستدير اليد حول الخصر ثم تسمع الحركة العابرة أو الساعة المؤذنة بالصوت كأنها الرقيب فتسترخي.. كانت تطاولا ولكنه تطاول محرق، وسمواً ولكنه سمو ظمىء .. وكان مع اللهب دخان .. مع اللهب الصافي دخان أسود .

وستمر اللهب يغزو .. نال من أطراف ابنة الغاب ، هذه الحطبة الصغيرة الضالة التي اجترأ عليها انسان فحملها إلى النار ، ثم جاءت النار تطهرها لتعيدها تراباً .. يا ويح الذين يضلون الطريق أو يحملون على الضلال

ونبتت على اطراف الحطبة الصغيرة ، النار الناشئة الصغيرة .

* * *

وما عرفت لهباً آخر أنقى وأصفى من هذا اللهب الذي يبدأ طريقه في الأطراف الدقيقة المحددة من الحطب والخشب .. لم يكن هذا اللهب الساطع ، ولكنه كان هذا اللهب الأزرق الصافي .. في مثل صفاء العيون الزرقاء هنا .. في مثل زرقة البحر في « السلوم » .. (من ذا يذكرني من أصدقائي وزملائي في الجامعة المصرية زرقة البحر في السلوم) ... ولم يكن هذا اللسان الطويل

من النار ، ولكنه كان من هنا وهنا كأنه سلسلة من الشموع صغيرة ، مرتجفة ، متصلة ، واحدة إثر أخرى .. تذبل وتحيا ، تنوس وتهدأ ، في تناوب عجيب يخطف العين فلا تتملاه .

وكذلك نبتت النار ، في ضيفة الموقد ، مجموعة متناثرة من ينابيع النور كأنما هي ينابيع الماء الصغيرة ، تتجمع فتكون منها الساقية كما تجمعت هنا فكان منها هذا اللهب المتقد الجديد .

والتقى اللهب الذي رقص حول حطبة الموقد حتى أغراها باللهب الجديد .. وبدت لي هذه الغرفة في هذا البرج ، ذات الجدران الصلدة ، كأنما أوقدت فيها شجرة جديدة من شجرات عيد الميلاد .. وأحسست انعكاسات النار على الحائط ، وعيني على الموقد لا تفارقه ، وسرت في وجهي لفحة حرارة أين منها لفحات البرد في طرق الغابة المنعزلة .

والتقى اللهب الذي كان يغني في الموقد باللهب الصامت الذي كان مستسراً في الحطبة ، وفجر فيه صوت الغابة الذي أودعته أنساغ الشجرة الكبيرة .. وعاشت الغابة في سمعي من جديد وهي تحترق في النار ، كما عشت في نشيدها وأنا أحترق في الحنين .

* * *

وحين كان يتضاعف اللهب في طرف الموقد من هنا كانت جمرة كبيرة هناك تتقطع بينها وبين أصولها الأسباب ، فتتعثر أجزاء ، لها في أولها جذوة الحياة ثم تهب هذه الجذوة ما حولها ويغشيها الرماد !!.. أترى من علم النار قصة وطني الكبير الممزق الذي آمن أن الأجزاء الصغيرة قد تلتمع أول الأمر ولكنها لا تلبث أن تغطيها برودة الفناء ؟

وقفزت إلى ذهني مع النار الملتهبة صورة هذا المتبعد المؤمن الذي حدث عنه ابن حزم في « طوق الحمامة » أنه خاف على نفسه فتنة الحسن في موقف اغراء ، وضع طرفاً من أصبعه في النار .. يا ويح الايمان .. ما يفعل من أعاجيب .. في اللهب وتحترق يده .. ولكن قلبه يظل نوراً من غير نار ، ولهباً من غير دخان ، وصفاء من غير ماء ، وحياة من غير دنس ..

* * *

ومضت الحطبة في دورة الحياة .. تحترق في جانب منها هذا الاحتراق الحي الثائر ، ولكنها كانت في جانب آخر تعس عسيساً خافتاً .. هو في أوله دخان ، ثم هو مزيج من الدخان والنار ، حتى يكون بعد ذلك ناراً .

أتراها سيرة الحياة ثورة حيناً وتطوراً حيناً ؟.. وحين تكون الثورة في جانب لابد من التطور في جانب آخر .. ولكنها ليست الثورة وحدها ولا التطور وحده ؟!!

واردتني أن أنتزع نفسي حتى يصفو لي الاحساس من عنت الفكرة.. ولكني وجدتني أفلت وأقع ، وأنجو وأعود ، وأعيش في الفكرة والحس معاً ، وأجد في الموقد الصغير الحياة الكبيرة ، كما أجد في الحياة الكبيرة الموقد الصغير .. وجدتني في حياتي العاطفية موصولا أشد الصلة بحياتي العقلية ، وفي هذه وتلك كنت منغمراً أكثر الأحيان ، حتى شحمتي الأذن ، في خضم الحياة الكبير من حولي .

وطقت في الموقد قطعة من الحطب ، واطار لها ، مع هذا الصوت ، شظية بعيدة — كأنما هي الفداء — وسرت مع رائحة النار الدافئة رائحة أخرى فيها شيء من العطر ، وعبقت هنا وهناك ، وكانت كأنما تريد أن تغشى جدران الغرفة وتتخلل مقاعدها .. كانت متموجة كأنماهي مع موجات الدفء في تناظر وتكامل .. وكانت الناعمة الآسرة ، تحس معها أنك تسلم لها رئتيك تعبها عباً .. يا لرائحة الصنوبر المحترقة !..

* * *

وتكاملت اللوحة في تناسق عجيب !.. حجر الموقد الذي لم تنل منه النار ، والأحجار السفع التي نالت منها النار فنشرت عليها هذه الحمرة الداكنة .. والرماد البعيد البارد والرماد القريب الذي لا يزال يحمل دفء الحياة .. والجمرة التي خمدت والجمرة التي سقطت كالشهاب .. واللسان الملتهب المتطاول واللسان الملتهب المتواري .. ونبعات النار هنا وساقية النار هناك .. وبين ذلك كثير ترى فيه العين غير الذي تراه العين الأخرى ، وترى فيه العين كل حين شيئاً جديداً غير الذي كانت رأته .

وتناسقت الالوان والأشباح في « سمفونية » خصبة .. هناك كانت الظلمة التي تداخلها النار ، وهنا النار التي تداخلها ظلمة .. وشجرة الميلاد الخضراء في هذه الزاوية بخضرتها السوداء وشموعها المتقدة وانعكاسات هذه الشموع وظلال لهبها الراقص في تلك الزاوية التي لم يبلغها اللهيب .. وتسابق أو تعاون بين نار الموقد ونيران الشموع .. وحمرة التفاح الذي ربطوه الى أغصان الشجرة من هنا ، وحمرة النار من هناك .. ورقصة اللهب في الشمعة ، ورقصة اللهب في الموقد .. وعبق النار من نحو وعبق الشمع من نحو آخر .. وخيالات واشباح على الجدران من هنا وهناك ، وأصوات وتمتمات ، وظلال داخلية ، واشباح فرسان العصور الوسطى في هذا القصر الحجري وارواح فتيان من كبريات المدن في عصر الذرة .. واطراف من المفارقات المتباعدة والمتقاربة لا حد لها !!

* * *

ترى ما الذي كان يدعوني أن أترك كل ماحولي واستسلم للهب وحيداً ، قبل أن يتسلل الضجيج الى الغرفة مع توارد الناس ؟! .. أكنت أحدق في هذه النار هنا من أمامي حقاً .. أم كنت كانسان افلاطون أرى هنا ، في الكهف ، في هذا الموقد الذي ألمسه بيدي ، ظلال النار الأخرى في اعماقي ؟!.. أكنت هنا استظهر الذي أبطن ؟.. ما أدري .. ولكن النار هنا في الموقد الذي تعلوه خوذة قديمة وسيف حديدي وبلطة مغلولة الحد ، إلى انطفاء .. ولكن الأنوار هناك في الموقد الذي لا يعلوه شيء إلا الحق الأعلى ، في انقاد دائم لأنها من الله ، حباً حيناً وحنيناً حيناً وشوقاً لاذعاً في كل الأحايين .. وتطلعاً دائباً مرة ، واستشرافاً متعللا مرة ، وحكمة ويقيناً في كل المرات .

* * *

حين كان الضجيج يجد طريقه الى هذه الغرفة مع الرفاق المقبلين واحداً بعد واحد ، شباباً في مقتبل العمر كالبسمة على الشفة الناعمة التي لم تعرف الإثم ، كنت أجدني أخرج من إطار الموقد وكأنما استوى لي قدر من الأحاسيس والأفكار أستطيع أن أعيش عليه ساعة أخرى من زمني .. والتفت فأرى كأنما الى جانبي أم وأسرة وولد .. وأهم أن أنادي .. م .. ولكن في لمعة البرق لا أرى من حولي إلا هؤلاء الذين تجمعوا ينتظرون .. ثم لا أسمع إلا هذا الجرس الضخم يدق دقاته الثلاث يدعوهم الى الطعام في غير رفق ..

وآكل كما يأكل الغريب حقاً .. أترى الذين كانوا هناك ، هناك وراء خط الأفق ، كانوا مثلي يذكرون ؟.. أفي اللهب يعيشون ؟!

٢٦-١٢-١٩٥٦

باد ليبنزل (الغابة السوداء)

شكري فيصل